(١٠) العلماء والانفصال عن الواقع

مشكلة الخِواء الروحي

د. راغب السرجاني:

كنا قد بدأنا في التعرض لأزمات يعيشها علماء هذا العصر وبالتالي وقعت الأمة في أزمات متلاحقة، لأن العلماء هم قادة الركب فإذا أصيبوا بأمراض وتفشت هذه الأمراض بينهم فإن الامة بكاملها ستعاني، ولم نذكر هذه الأمور لإحداث يأس في القلوب ولكن ذكرناها لنبحث سويا عن العلاج، ولنقول في نفس الوقت أن عكس هذه الأزمات والأمراض التي تصيب العالِم هي التي توجد في العالِم الرباني الذي يفهم دينه وواقعه.

ذكرنا مرض وهو ظاهرة الانفصال عن الواقع، فيكون العالِم في وادٍ والواقع الإسلامي في وادٍ آخر فينغمس في قضايا ليست من أولويات الأمة.

العالم قد يكون عنده علم كبير لكن لا يُسقط هذا العلم وهذه القواعد التي يحفظها على واقعه الذي يعيش فيه، فلماذا العالِم يكون منفصل عن واقعه؟

د. صلاح سلطان:

يقول الإمام الشاطبي في كتابه الموافقات: "والفقه ثلاثة أنواع، فقه النص وفقه الواقع وفقه انزال النص على الواقع، فالأول والثاني مكتسبان أما الثالث فهو موهبة يعطيها الله من يشاء من عباده".

إذا حُرم العالِم صلته مع ربه فإنه لن يُجيد إنزال هذا النص من الله على الواقع الذي يعيشه عباد الله، فكانه يفقد الحكمة، يقول الله تعالى: {وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا} [البقرة: ٢٦٩].

هناك كَفاف روحي عند كثير من العلماء، يحدث أن تجد عالِم ما يتابع قراءة القرآن بصفة مستمرة حتى لا ينساه، لكن عندما تجده يهيم بقراءته فعندما يحدد أنه سيصلي بربع جزء ولكن يجد نفسه قرأ جزأين فمثل هذا تجد أن قبله متعلقا بحب الله والخشية منه عزَّ وجلَّ، قد يجد البعض أن هذا الأمر بسيط لكن الله عز وجل يقول: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ} [الأنفال: ٢٩].

الفرقان هو قرار بناءًا على رؤية، وأنا دائما أربط بين سورة الفرقان وسورة النور فتصبح سورة النور هي الرؤية والفرقان هو القرار، فعندما يقرأ النص ويرى الواقع، فلا يكون دوره تسويغ الواقع بالنص إنما دوره هو إصلاح الواقع بهذا النص.

كثير من الشيوخ يتحولون إلى موظفين، فيذهبون لأداء الصلاة حتى لا تُخصم من رواتبهم وهؤلاء لا تراهم في يوم أجازتهم، لكن في المقابل ترى شيوخًا يأتون إلى المساجد حتى في يوم أجازتهم الرسمي لأنه يرى أنه ليس هناك أجازة في موعده مع الله!

د. راغب:

حكا لي أحد من المشايخ أن وزارة الأوقاف قامت ببناء مسجدًا وفوقه شقة للإمام، لكن في يوم الإجازة لا ينزل هذا الإمام ليصلي في المسجد، وهذا الأمر متكرر، فلا ينزل للصلاة في المسجد حتى مأمومًا لأنه يعتبر نفسه في أجازة!

د. صلاح:

فهذا العالِم يرى أن هذه وظيفة فقط وليست رسالة يؤديها، وقد يبدأ برسالة لكن مع الاعتياد تتحول العبادة إلى عادة فتفقد نورها.

د. راغب:

في قضية الخواء الروحي أرى أنها لو صلحت هذه القضية فستنصلح أمور كثيرة في حياة العالِم وسيصبح عالِما ربانيا، ما هي مظاهر الخواء الروحي؟ هل يمكن مثلا أن يكون عالِما ربانيا بدون قيام الليل؟

د. صلاح:

إذا كان الترتيب الطبيعي في القرآن في قوله: {اقْرَأْ} لكن ليس أي قراءة! ولكن {اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ} [العلق: ١]

ثم يأتي {ن ۚ وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ} [القلم: ١]، ولان القيادة قيد القوائد فلا بد من التسجيل والكتابة حتى تنقل المعلومات من الذاكرة المعرفية إلى الذاكرة الاسترجاعية ثم قبل أن تنتقل إلى المعلومة نأتي إلى : {يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ . قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا} [المزمل: ١-٢].

فإذا كان ثمة عالِم يَدَع قيام الليل فقد تُودِعَ منه، لأنه يُحرم الخشية القلبية، وأوسع أبواب الخشية القلبية هي قيام الليل، يقول الله تعالى: {وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا} [الإسراء: ٧٩]

ويقول إقبال:

يَا رِجَالَ اللَّيْلِ جِدُّوا *** رُبَّ دَاعٍ لاَ يُرَدُّ

مَا يَقُومُ اللَّيْلَ إلاَّ *** مَنْ لَهُ عَزْمٌ وَجِدُّ

ويقول أحد المربين: "إن دولة الإسلام لن تقوم على أكتاف رجال لا يقومون الليل".

وكنت قد كتبتُ مقالا على موقعي بعنوان (بين ليل العابدين وليل العابثين)، فإذا كان أصحاب اليمين يرون أن قيام الليل سنة ومستحب فالمقربون لا يستطيعون أن يعيشوا من غير قيام الليل.

د. راغب:

كيف يمكن أن نصل بالفرد المسلم حتى تكون عينه على الآخرة ويزهد في الدنيا، ومع أن تحقيق هذا صعب لكن أنا أرى أن أول الطريق، بعد العبادات المفروضة، قيام الليل وعندي دليل من القرآن: {يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ . قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا} [المزمل:١-٢]

هذا أمر بنائي أصيل في العالِم الرباني، لا يمكن أن يكون عالِما ربانيا وليس له قسط من الليل، لأن الليل هو اتصال بين العالِم ورب العالمين سبحانه وتعالى.

د. صلاح:

وكما يقول أحد الصالحين: (جاهدّتُ نفسي لأقوم الليل ثمّ صرت أجُاهِد نفسي لأنام)، فهو ذاقَ حلاوة قيام الليل ومن ذاق عرف، وهذا هو العالِم الذي نريده.

والخواء الروحي عندما تحول ليل بعض علمائنا إلى ليل العابثين، فهذا يعبر عن جرح عميق، فالعالِم الذي يفترض أن يكون عابدًا بالليل مناهضًا للفساد تجده هو جزء من هذا الفساد.

د. راغب:

رأيت أحد الإخوة وكان قد ترك العمل الدعوي، لأنه رأي الدعاة الذي تعلم على يديهم لا يأتون لصلاة الفجر، فوجدهم يتكلمون في المؤتمرات والندوات كلاما يحرك الجبال ثم يتغيبون عن صلاة الفجر التي هي أصلا فرض علي المسلمين.

هذا العالِم المنعزل عن ربه، ولا يلتقي بربه في الوقت الذي ينزل إلى السماء الدنيا كما في الحديث: «يَنْزِلُ ربُّنا تباركَ وتعالى كلَّ ليلةٍ إلى السماءِ الدنيا ، حينَ يَبْقَى ثُلُثُ الليلِ الآخرِ ، يقولُ : من يَدعوني فأَستجيبُ لهُ ، من يَسْأَلُني فأُعْطِيهِ ، من يَستغفرني فأَغْفِرُ لهُ».

الراوي: أبو هريرة -المحدث: البخاري

المصدر: صحيح البخاري - الصفحة أو الرقم: ١١٤٥

خلاصة حكم المحدث: [صحيح]

وهو الموكل إليه إيقاظ الناس وتحريك القلوب والنهضة بالأمة، كيف تقوم الأمة بمثل هذا العالم؟ لا شك أن هذا العالم سينعزل عن واقعه وستطمس على بصيرته وقلبه، فإذا انعزل عن رب الناس كيف لا ينعزل عن الناس!

د. صلاح:

أذكر قول سيدنا مالك بن أنس في تستر، وكانت معركة بين ١٥٠ الف من الفرس ضد ٣٠ ألف مسلم وطال الحصار ثم قاوم المسلمون مقاومة شرسة جدا ولم يأت الانتصار إلا مع شروق الشمس، فكان مالك بن أنس كلما ذكر هذا اليوم يبكي ويقول: مالي وتستر! لقد أضاعت مني صلاة الفجر مرة.

رهبان بالليل فرسان بالنهار، هذا نموذج العالِم الرباني الذي نريده، فأنا أرى أن أول أسباب انفصال العلماء عن الواقع هو الخواء الروحي.

فيجب أن يكون للعالِم ورد من القرآن والذكر والتدبر، ويكون صاحب قلب موصول بالله سبحانه وتعالى.

سيدنا أبي بن كعب رضي الله عنه، وهو أقرأ الأمة لكتاب الله، عندما مر عليه الرسول صل الله عليه وسلم في الطريق سأله: «يا أبا المنذِرُ! أتدري أيَّ آيةٍ من كتاب اللهِ معك أعظمُ ؟ قال قلتُ : اللهُ ورسولُه أعلمُ . قال : يا أبا المنذِرُ! أتدري أيَّ آيةٍ من كتاب اللهِ معك أعظمُ ؟ قال قلتُ : اللهُ لا إله إلا هو الحيُّ القيومُ . قال : فضرب في صدري وقال : واللهِ ! لِيَهْنِك العلمُ أبا المنذِرِ».

الراوي: أبي بن كعب -المحدث: مسلم-

المصدر: صحيح مسلم - الصفحة أو الرقم: ٨١٠

خلاصة حكم المحدث: صحيح

ثم أرسل الله له هدية من السماء، قال النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم لأُبَيٍّ: «إنَّ اللهَ أمَرَني أن أقرَأَ عليك: { لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا }. قال: وسمَّاني؟ قال: (نعمْ). فبَكى».

الراوي: أنس بن مالك -المحدث: البخاري

-المصدر: صحيح البخاري - الصفحة أو الرقم: ٤٩٥٩

خلاصة حكم المحدث: [صحيح]

وكان هو أول من سمع سورة البينة من أهل الأرض.

د. راغب:

هذا هو العالم الموصول بالله، الذي فقه دوره في الحياة وبدأ يعبد الله كما يريد ربنا أن يُعبَد، لأننا أحيانا نعبده بهوانا لكن نريد أن نعبُد ربنا سبحانه وتعالى بالطريقة التي تحفظ حياتنا أموالنا وأهلنا، لكن هو يريد أن يكون حيث أمره الله أن يكون.

د. صلاح:

وكلما كان الأمر مخالفًا لهوى الانسان كان الأجر أعظم وكانت العبادة لها طعم أفضل، وكان هارون يقول (حبب إلينا العفو حتى ظننا أننا لا نؤجر فيه).

إنما كلما كان الامر صعبًا على النفس شديدًا عليها مخالفًا للهوى الداخلي، كان أرطب للقلب وأقوى في التأثير على النفس.

د. راغب:

لعل من أهم وألزم صفات العالم الرباني الاتصال بالله عز وجل وهو عكس الخواء الروحي، إذا شعر أنه يرتقي في هذا الأمر فلا شك أن هذا الارتقاء سيكون له مردود على حياته مع الناس وعلى علاقته المجتمع الذي يعيش فيه، والعلماء المعزولون عن مجتمعاتهم نستطيع أن نجزم انهم ليس لهم علاقة مع الله تبارك وتعالى.

ولو كانت لهم علاقة معه لرزقهم الحكمة وإذا رزقهم الحكمة اختلطوا بشعوبهم وعاشوا معهم وتعايشوا مع همومهم ويؤثرون لا يتأثرون، يؤثرون في تغيير الباطل ولا يتأثرون بالباطل.

والتاريخ به أمثلة كثيرة عن علماء عاشوا واقعهم وعلماء تركوا واقعهم، فلو ممكن تحدثنا عنهم.

د. صلاح:

عبد الله بن المبارك عندما بعث رسالة إلى الفضيل بن عياض الذي ترك الجهاد في غزوة ما وذهب ليعتكف في بيت الله الحرام.

د. راغب:

وهذا مثال غريب لأن الفضيل كان عَلَم من الأعلام الكِبار، و وُصِلَ بالله من خلال القيام والاعتكاف والصلاة لكن غاب عن ذهنه معنى معين وهو معايشة الأمة فالتقطه عبد الله بن المبارك، فماذا فعل؟

د. صلاح:

عبد الله بن المبارك لما وجد انه استلذ العبادة وترك قيادة الأمة والشعور بالمسؤولية عن العالم، ذَكَّره وأرسل له هذه الأبيات الرائعة:

يا عابدَ الحرمين لو أبصرتَنا *** لعلمتَ أنَّكَ في العبادةِ تلعبُ

مَنْ كانَ يخضبُ خدَّه بدموعِه *** فنحورنُا بدمائِنا تَتَخْضَبُ

أوكان يتعبُ خيله في باطل *** فخيولنا يوم الصبيحة تتعبُ

ريحُ العبيرِ لكم ونحنُ عبيرُنا *** رَهَجُ السنابكِ والغبارُ الأطيبُ

ولقد أتانا من مقالِ نبينا *** قولٌ صحيحٌ صادقٌ لا يَكذبُ

لا يستوي غبارُ أهلِ الله في *** أنفِ أمرئٍ ودخانُ نارٍ تَلهبُ

هذا كتابُ الله ينطقُ بيننا *** ليسَ الشهيدُ بميتٍ لا يكذبُ

وبكى الفضيل بن عياض وترك اعتكافه وخرج جهادا في سبيل الله.

د. راغب:

وأنا أُذكِّر الإخوة أن هذا كان في وقت تعين فيه الجهاد على المسلمين، لأنه كان هناك غزو من الروم إلى بلاد المسلمين وأُحتِلَتْ قطعة من بلاد الشام.

والفضيل بن عياض أعطى هدية لمن أرسل له رسالة عبدالله بن المبارك وكانت هذه الهدية عبارة عن حديث للرسول صل الله عليه وسلم، «لما جاء رجلٌ إلى رسول الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم فقال: دُلَّني علَى عملٍ يَعدِلُ الجِهادَ، قال: (لا أجِدُهُ). قال: (هل تستطيعُ إذا خرَجَ المُجاهِدُ أن تَدْخُلَ مَسجِدَك فَتَقومَ ولا تَفْتُرَ، وَتَصُومَ وَلاَ تُفْطِرَ). قال: ومن يستطيع ذلك. وقال أبو هُرَيرَةَ: إن فرس المجاهد ليستن في طوله، فيكتب له حسنات».

الراوي: أبو هريرة -المحدث: البخاري

-المصدر: صحيح البخاري - الصفحة أو الرقم: ٢٧٨٥

خلاصة حكم المحدث: [صحيح]

د. صلاح:

نريد العالِم من العلماء وأئمة المساجد أن يتوسم في وجوه الناس، إن وجد شخصًا حزينًا يواسيه ومن وجده فرحًا يهنئه، ويعيش حياة الناس.

د. راغب:

أصل ذلك علاقة قوية مع الله سبحانه وتعالى، فإن وصلت هذه العلاقة لدرجة السمو بإذن الله سيكون هناك انعكاس في علاقته مع الناس.